﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سَوْقُ الأَدِلَّةِ عَلى ضلال النِّفاقِ، ومفاسدِ مَن لم يتب من أهل الشِّقاق

في مُناسَبَةِ هذِهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها وَجْهانِ: أحدهما: أنَّ اللهَ ﷻ لَمّا ذَكَرَ الدَّليلَ العامَّ على إجرامهم وأنَّ فيهِم كُفْرًا عَظيمًا ونِفاقًا، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ الدَّليلِ الخاصِّ على ذلك الإجرام، فقالَ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾[1]. والآخَرُ: أنَّه لَمَّا كانَ مُعْظَمُ ما أُخِذَ عَلَى أَهْلِ النِّفاقِ كَلِماتٍ دالَّةً علَى الطَّعْنِ في النَّبيِّ ﷺ وَفي أَهْلِ الإيمان، ونَحْوِ ذلك مِن أدلَّة الكفر، وكانوا إذا نُقِلَ عَنْهُم ذَلِكَ؛ أَنْكَروا نِسْبَتَها إِلَيْهِم بالأَيْمانِ الكاذِبَةِ؛ أَعْقَبَ اللهُ تعالَى آيَةَ الأَمْرِ بِمجالدتهم، بِالتَّنْبيهِ علَى أنَّ إِنْكارَهُم كان كاذِبًا، وأنَّهُ لا ثِقَةَ بأَيمانهم، وأنَّ ما صَدَرَ منهم هوَ صَريحُ الكُفْرِ، ومحض الضَّلال[2]، ولا عبرةَ بحلفانهم، ولا بغليظ أيمانهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحْلِفُونَ﴾: الحاءُ واللَّامُ والفاءُ، تَدُلُّ تَصْريفاتُها علَى مَعْنَى المُلازَمَةِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: حالَفَ فُلانٌ فلانًا؛ إذا عاهَدَهُ، وذَلِكَ لِما في المُعاهَدَةِ مِن معنى المُلازَمَةِ، ومن هذا المعنى: الحَلِفُ بِمَعْنَى القَسَمِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/268.

لأنَّ الإنْسانَ؛ إذا أقسَمَ؛ لزِمَهُ الثَّباتُ على ما أقسم به[1]، وأَصْلُ الحَلِفِ: اليَمينُ الذي يَأْخُذُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ بِها العَهْدَ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَت في كُلِّ يَمينٍ، ومنه قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: 10]، أَيْ: كَثيرِ الحَلِفِ - وَهوَ القَسَمُ - ومنه قول اللّهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾[2].

2) ﴿وَهَمُّواْ﴾: الهاءُ والميمُ تَدورُ اشْتِقاقاتُها على ذوبان شَيْءٍ مُتَسَيِّبًا مِمَّا يَجْمَعُهُ لحرارة أَو شِدَّة، ومِنْهُ الهَمُّ: وَهوَ الحُزْنُ، سُمّي بذَلِكَ؛ لأنَّه يُذيبُ الإنسانَ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: هَمَّ بالشَّيءِ؛ إذا نَواهُ وعزَمَ عليه، وسُمِّيَتِ الإرادَةُ والعَزيمَةُ هَمًّا؛ كأنَّما تَحَلَّبَت إرادتُه وهَواه بشدَّة نَحْوَ أمرٍ ما، كَما يَسيلُ اللُّعابُ إلَى الطَّعامِ شَهْوَةً، وأهمَّني كذا، أي: حملني على أن أهمَّ به، قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: 154][3]، وهمَّ بالشَّيء همًّا؛ إذا خطر بباله أن يفعلَهُ، ولم يعزمْ، قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122][4]، ومِنْ هذا قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[5].

3) ﴿يَنَالُواْ﴾: النُّونُ والواوُ واللَّام، تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على معنى الإعطاء، تَقولُ: نوَّلْتُهُ، أَيْ: أَعْطَيْتُهُ، والنَّوالُ هو العَطاءُ[6]، وحَقيقَتُه: ما يناله الإنْسانُ من الصِّلة[7]، ناله يناله نَيْلًا؛ إذا أصابه، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ [التّوبة: 120][8]، والمُرادُ بقَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾: هَمُّوا وعزَموا عَلَى شَيْءٍ لَم يُحَصِّلوهُ، وَلَمْ يُمَكَّنوا مِنْهُ.

4) ﴿نَقَمُوٓاْ﴾: النُّونُ والقافُ والميمُ، تَدورُ تَصْريفاتُها علَى إنْكارِ شَيْءٍ وَعَيْبِه، تَقولُ: نَقَمْتُ عليه؛ إذا أَنْكَرْتَ عليه فِعلَهُ، ومِنْهُ: النِّقمةُ مِنَ العَذابِ، والانتقام، قيلَ لَهُ ذلك؛ لأنَّه كالذي أَنْكَرَ ما عليه، فَعاقَبَهُ[9]، ويَرِدُ فِعْلُ نَقَمَ يَنْقِمُ بمعنى: العِتابِ والكَراهةِ والإنْكارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (حلف).
(3) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (همم).
(4) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (همّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (همّ)، والرّاغب، المفردات: (همم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نول).
(7) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(8) نشوان، شمس العلوم: (نال).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).

والسُّخْطِ[1]، والنِّقمة: المكافأة بالعقوبة، والجمع: نِقَمٌ، وقال ابن جني: نِقمةٌ، ونِقَمٌ: وكان القياسُ أن يقولوا في جمع: نقمة: نَقِم، على حدِّ: كلمة وكَلِم، فعدلوا عنه إلى أن فتحوا المكسور، وكسروا المفتوح[2]، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ معناهُ: وَما أنكَروا، ولا عابوا إلَّا ما هوَ قَمِنٌ بالمدح والثَّناءِ؛ وهو إغناء اللّه تعالَى لهُمْ مِنْ فضْلِه[3].

5) ﴿وَلِيّ﴾: الواوُ واللَّامُ والياءُ، تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى القُرْب، وَمِنْهُ: الوَلْيُ وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعد وَلْيٍ، أي: بعد قُرْبٍ، وجلسَ ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني، ومنه المولى، وهوَ يُطْلَقُ على معانٍ، مِنْها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنَّاصر، والجار، وفي كلِّها معنى القُرْبِ كما هوَ بَيِّنٌ[4]، ومِن أسماءِ اللّهِ سُبحانَهُ: الوَلِيُّ، ومَعْناهُ النَّاصِرُ، أَوْ هوَ المتوَلِّي لأمور الخلائق القائمُ بها[5]. والوَلِيُّ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، بمعنى: المُنْقِذ، والمرادُ: ما لَهُم مِن مُنْقِذٍ يُنْقِذُهُم ولا نَصيرٍ يَنْصُرُهُم.

6) ﴿نَصِيرٖ﴾: تَدورُ مادَّةُ النُّون والصَّاد والرَّاء، حول معنى إتيان خيرٍ وإيتائِه بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[6]، وَمِنْهُ سمِّيَ المطرُ: نصرًا[7]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النَّاصر وغَلَبَتِه[8]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، ونُصراءُ: صيغةُ مبالغةٍ من نصَرَ: كثير التَّأييد والعون بدعم وقوَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحجّ: 78]، والنَّصيرُ: اسمٌ من أسماء اللّه الحسنى، ومعناه: الذي لا يخذل وليَّهُ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقْسِمُ المُنافِقونَ بِاللّهِ سُبْحانَهُ: إنَّهُم ما قالوا شيئًا يُسيءُ إلى رسول اللّه ﷺ وإلى

(1) بطّال الرَّكبيّ، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/256.
(2) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: (نقم).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/437.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/486.
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصر).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/486.
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نصر).

المُؤمِنين، والحالُ أنَّهم قالوا ذلك، وإنَّهُمْ لكاذبون، وقدِ ارتدُّوا بمَقالتهم هَذِهِ عَنِ الإسْلام.

تَـهْـديـدُ أهـلِ النِّفاقِ بِالعَذابِ الموجِعِ في الدُّنْيا، وَبِنارِ جَهَنَّمَ في الآخِرَةِ

وقَدْ عَزموا على الإضرار برَسولِ اللهِ ﷺ، فلم يُمَكِّنْهُمُ اللهُ ﷻ من ذلك، وَلَم يجد هَؤُلاءِ المُنافقونَ شَيْئًا يَعيبونَهُ، وينتقدونه، إلَّا أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ تَفَضَّل عليهم، فَأَغْناهُم بما فتح على نَبيِّه ﷺ مِنَ الخير والبركة، فَإنْ يَرْجِعْ هَؤُلاءِ الكفَّارُ إلَى الإيمان والتَّوبة؛ يكُنْ خَيْرًا لهم، وإنِ اسْتَمَرُّوا علَى حالهم في الإعْراض، يُعَذِّبْهُمُ اللهُ تَعالَى العَذابَ الموجِعَ في الدُّنْيا علَى أيْدي عباده المُؤمِنينَ، وَفي الآخِرَةِ بِنارِ جهَنَّمَ، ولَيْسَ لَهُمْ مُنْقِذٌ ينقذهم، ولا ناصِرٌ يَدْفَعُ عنهم العذاب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ أسلوب الفَصْلِ في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾:

بَيانُ عِلَّةِ الأَمْرِ بِجِهادِ المُنافِقينَ والإغْلاظِ عليهم

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجُملَتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك لأنَّ قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يَبْعَث في نَفْسِ المُتَلَقِّي سؤالًا؛ وهوَ: أمَّا جِهادُ الكُفَّار؛ فالأمْرُ فيه ظاهِرٌ، وأمَّا المنافقون؛ فما صورَةُ جهادِهِم؟ وهُم يتكلَّمون بلفظ الإيمان، ويُظهِرون أفعالَ المُسْلِمين، مع مُشاهدَةِ ظاهِرِ أحوالهم، مِنَ التَّنصُّل مِمَّا نُقِلَ عَنْهُم، فجاءَ الجَوابُ: لأنَّهم يحلفون كذبًا إنَّهم ما تلفَّظوا بما يُحْكَمُ به عَلَيهِم بالكُفْرِ، والحالُ أنَّهم قَد قالوا ذلكَ، وكَفروا، بعد إظْهارِهِمُ الإسلامَ[2]. ويجوز أن تكونَ الجملَةُ لبيانِ علَّةِ الأمْرِ بجهادِهِم، إن جُعِلَ المَقْصود مِنَ الجملَةِ قولَهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، وإنَّما أُخِّرَ اهتمامًا بتكذيبِهِم ابتداءً، ويقوِّي هذا الوجهَ أنَّ ما في هذه الجملَةِ، هوَ أدلَّةُ كُفْرِهم ونقضهم عَهْدَ

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.

الإسلام؛ وذلك لأنَّه لو كان المقصودُ بيانَ خصوصِ تكذيبِهم فيما أَقْسَموا عليه؛ لكان الأنسبُ الاقتصارَ على إثْبات مُقابِلِه، وهو ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، ولَم يكن لِما بعْدَهُ تَعَلُّقٌ به، وعَلى كِلا الوجهين؛ فإنَّ قولَهُ سُبْحانَهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، مستحقٌّ الفصْلَ دونَ الوصل بالواو[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾:

جَـراءَةُ المُنافِقينَ عَـلَى الـلـهِ ﷻ بِالحَلِفِ الكاذِبِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾، مع أنَّ حَلِفَهُم متقدِّمٌ على نُزول الآيَةِ الكريمَةِ؛ لاستحضار حالهم العجيبَةِ من الجراءة على اللّه تَعالى، بالحَلِف الكاذِبِ، وللإيماءِ إلى تَكْرار هذا الفعل منهم[2]، وأنَّ طَبْعَهُم القسَمُ الكاذب، وإذا كان يَصْدُر مِنْهُمُ الكَذِبُ مقرونًا بالقسم، فكَيْفَ يوثَقُ بما قالوه مِن غير قسم أصلًا؟ والَّذين يحلفون كذبًا وزورًا، هم عبد اللّه بن أبيٍّ بن سلول، وأضرابه، وهم كثر، ولكنَّهم معروفون عند الرَّسول ﷺ، وهم نماذج لمسوخ بشريَّةٍ، لا همَّة لهم ولا نخوة، ولا إيمانَ لهم ولا ضميرَ، وهم يفعلون الأفاعيل، ويتكلَّمون بأبشع الأقاويل، ولا يتورَّعون عن الكذب الصُّراحِ، ولا عن العمل الوقاحِ، ويفيد الفعلُ المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾ تجدُّدَ القول منهم في زمان تنزُّلِ القرآن، وتجدُّد الفعل في كلِّ عصر وأوان.

بلاغةُ إسْنادِ فِعْلِ الحَلِفِ إلَى ضَميرِ الجَمْعِ في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الـرَّاضي بِالجُرم كفاعِلِهِ، وإن لم يكـن في الأصـل فاعلًا

أُسْنِدَ فِعْلُ الحَلِفِ إلَى ضمير الجمع - واو الجماعة - في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الحَلِفَ صَدَر من جماعةٍ، كما جاءَ في بعض الأخبار في سَبَبِ نُزول هذه الآية، فالإسنادُ إلى الجماعةِ ظاهِرٌ بيِّنٌ، وأمَّا إذا كان الحالِفُ واحدًا - كما في رواياتٍ أخرَى - فيكونُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/328.

إسْنادُ فِعْل الحَلِف إلى الجَماعة عَلى خلاف الظَّاهِر، لأنَّ الحالفَ - وإن كان واحدًا - إلَّا أنَّ الباقينَ راضونَ بذلكَ الحَلِفِ الكاذِبِ، معَ عِلْمِهم بِكَذِبِه، فيَكون هذا مجازًا عقليًّا، من إسناد الفِعْلِ إلى سَببِهِ، ويجوزُ أن يكون قد نُزِّلَ رضاهُمْ به منزلَةَ فِعْلِهم لَهُ[1]، فيَكونُ هَذا من قَبيل الاستعارة؛ إذْ شُبِّهَ رضاهُم بالفِعْلِ بجامِعِ وجودِ الإرادَةِ في كُلٍّ مِنْهُما، فحذِفَ المشبَّهُ به وصُرِّحَ بالمشبَّهِ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّةِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ الأَعظم (اللهِ) في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾:

جاءَ التَّعبير بالاسم الأَحْسَنِ (اللّه) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ وهو الاسْمُ الجامِعُ لصِفاتِ الجلال والجمال، ومزايا العَظَمَةِ والكَمالِ، تَشْنيعًا للحلفِ الصَّادر مِنْهُم، وأنَّه بَلَغَت بِهِمُ الجراءَةُ والجُرْمُ، أنْ تجرَّؤوا على مَقامِ الألوهيَّةِ، فأَقْسَموا باسمِ اللّه تَعالى العَظيم بالكذب والمين، والَّذي يفتري على اللّه الكذب، لا يؤمن باللّه جبَّارًا، ولا يرجو له وقارًا، وقد اصطدمَ الجُلاسُ بن سويد بن الصَّامت، وقيل: معه وديعةُ بن ثابت، مع عامرِ بن قيس، حيث احتكمَ معه إلى رسول اللّه، فأنكرَ الجُلاسُ ماقاله من قبلُ، وحلف كاذبًا، بأنَّه ما قال ذلك إطلاقًا، فرفع عامرُ بن قيس يديه إلى السَّماء، وقال: (اللهمَّ أنزِل على عبدك ونبيِّك تصديقَ الكاذبِ، وتكذيبَ الصَّادقِ)[2]، فنزل هذا المقطع القرآنيُّ بهذا السِّياق البليغ في أوانه، ليبقى خالدًا مخلَّدًا إلى أن يقومَ النَّاسُ لربِّ العالمين، وفيه تبكيتٌ لهذا الكذوبِ الكنودِ الَّذي أنكر فعلتَهُ، وتنصَّل من جرمه وجريرته[3].

التَّشْنيعُ على المُنافِقينَ في الحَلِفِ باللهِ تَعالَى كَذِبًا وبهتانًا

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/328.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.

(3) "وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين، لمَّا قال: ما مثلنا ومثل محمَّدٍ إلَّا كما قال القائل: سمِّن كلبَك يأكلْكَ، لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فأُخبِرَ النَّبيُّ ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أبيّ فحلف إنَّه لم يقله". ينظر: القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/351.
وكان هذا قبل توبته، فقد رُوي أنه تاب وحسنت توبته، يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: 4/314، وابن حجر: الإصابة: 1/599.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الفِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، حذْفُ متعلَّق فعل القول، وهو المفعول، وإنَّما حُذِفَ لدلالةِ قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾عليه[1]، ويجوز أن يكون الفعل المُتَعَدِّي ﴿قَالُواْ﴾ مُنَزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازم، فمعنى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما صدر منهم قولٌ، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعميمُ المفعول، للإيماءِ إلى أنَّهم مهما عُنِّفوا على مقالةٍ ما أيًّا كانَتْ؛ فإنَّهم يُبادِرونَ إلى القَسَمِ الكاذِبِ على نَفْيِه؛ لأنَّهُمْ جُبِلوا على أَعْلى الكَذِبِ وأعظمه[2]. ويجوزُ وجهٌ ثالثٌ؛ وهو تقدير المفعول في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما قالوا فيكَ شَيْئًا يَسوؤُكَ[3]، ونكْتَةُ حذفِه: شناعَتُهُ وقُبْحُهُ، فطَوَى اللهُ سُبحانَهُ ذِكْرَهُ حفْظًا لمقامِ النُّبوَّةِ، وتعليمًا للعبادِ ألَّا يُشيعوا المقالاتِ الباطلَةَ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ.

المُنافِقونَ مَجْبولونَ عَلَى الكَذِبِ، ولا يَرون فيه غضاضةً

دلالَةُ (الواوِ): ﴿وَلَقَدْ﴾:

الواوُ في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ حاليَّةٌ، والجملة بعدها في محلِّ نَصْبٍ حالٌ، والغرضُ من تَعْقيبِ الجُمْلَةِ الأولَى بجُملةِ الحالِ، إثباتُ كَذِبِهم وافْترائِهم وجَراءَتِهم في قَسَمِهم على نفي قولهم المقالةَ الباطِلَةَ[4].

كَذِبُ المُنافِقينَ وافْتراؤُهُم وجَراءَتُهُم في حَلِفِهِمْ، سوءُ طبعٍ وخُلُقٍ

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾:

أُكِّدَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ بالقسَمِ المحذوفِ، واللَّامِ، وقَدْ؛ وذلكَ لِنُكْتَتَيْنِ: إحداهُما: تحقيقُ تكذيبِهم في الَّذي أَنْكَروه[5]، والأخرى: تأكيدُ صدورِ كَلِمَةِ الكُفْرِ مِنْهُم؛ ليُناسِبَ تأكيدُهُم نفْيَ صدورها منهم، ولذا جاءَ التَّأكيدُ بالقَسَمِ؛ ليكونَ

تَحْقيقُ إثْباتِ كَذِبِهِمْ فيما أَنْكَروهُ مِنْ مَقالَةِ الكُفْرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.
(3) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/456.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/383.

تكذيبُ مقالتهم مساويًا لقولهم في تأكيد نفيها، بَلْ إنَّ جملةَ ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، زادَتْ عليها في التَّوكيدِ باللَّام وقد[1]، وهو" عرضٌ لحالٍ من أحوال المنافقين، وكشْفٌ لوجهٍ من وجوههم المنكرة..وهو أنَّ من دأبهم أن يحلفوا كذبًا وزورًا، أنَّهم ما قالوا هذا القول المنكرَ الَّذي كان سرًّا بينهم، ففضحَهم اللّه به، وأطلعَ النَّبيَّ والمسلمين عليه"[2]، وفي ذلك فضيحةٌ سافرة، لتعرية نيَّاتِهم السَّيِّئة، وأقوالهم المسمومة الَّتي ما أرادوا بها إلَّا أذيَّةَ الرَّسول ﷺ، وبَثَّ البلبلةِ في المجتمع المسلم النَّقيِّ لبلوغ مآربهم الآثمة.

دلالَةُ الطِّباقِ بين: ﴿مَا قَالُواْ﴾، و﴿وَلَقَدْ قَالُواْ﴾:

النِّداءُ عَلَى المُنافِقينَ بِالكَذِبِ والإفْتِراءِ للتَّحقيرِ والإزراء

في قول اللّه ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، طباقُ سَلْبٍ بينَ ﴿مَا قَالُواْ﴾، وهو منفيٌّ بـ ﴿مَا﴾، وبينَ ﴿قَالُواْ﴾ الأخرى، وهي مثبتَةٌ، والتَّعبيرُ بالطِّباقِ ههنا مُنادٍ عَليهم بالكذبِ، وأنَّ ما أثبتَ اللّهُ سبحانَهُ أنَّهم قالوُه، هوَ عَيْنُ الَّذي حلَفوا باللّهِ تَعالى كذبًا وبهتانًا أنَّهُمْ لَمْ يقولوهُ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ الَّذي أثبتَهُ اللّهُ ﷻ غيرُ الَّذي نَفَوْهُ.

دِلالَةُ لَفْظِ ﴿كَلِمَةَ﴾ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجازِ:

إذا أَمْكَنَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى مَعْناهُ الحَقيقيِّ مِنْ غَيْرِ تكلُّفٍ؛ تَعَيَّنَ ذَلِكَ

أصلُ الكلِمَةِ: قولٌ مفردٌ، أو هي لفظ دالٌّ على مَعْنًى مُفْرَد، والكلمة في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، يُرادُ بها الكلامُ المفيدُ؛ لظهور أنَّهُمْ لم يتلفَّظوا بكلمة واحدة؛ لعدم تمام الإفادة بها، فضلًا عَنْ أن يُحْكَمَ عليهم بسَبَبِها بِالكُفْرِ، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ الجزئيَّةُ، والتَّحقيقُ أنَّ إطلاقَ الكلمَةِ على الكلامِ هوَ حقيقَةٌ لغويَّةٌ[3]، وأمَّا إطلاقُ الكلمَةِ مُرادًا بها القولُ المفردُ؛ فهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.
(3) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 12/103 - 105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.

اصطلاحٌ حادِثٌ بعد زمَنِ التَّنزيلِ، وجُعِلَ ذلكَ اصطلاحًا للنُّحاة ومَن شاكلهم، فلا يَصْلُحُ حَمْلُ النَّصِّ القرآنيِّ على هذا المعنى، بل يُحْمَلُ على المعنى الَّذي تَعْرِفُه العرَبُ في لسانها، وهو الكلام، فيَكونُ استعمال لفظ الكَلِمَةِ في الآيةِ، مِن قَبيلِ الحقيقَةِ اللُّغويَّةِ، وإن كانَ ذلك مجازًا عُرْفيًّا خاصًّا في عُرْفِ النُّحاةِ.

نُكْتَةُ الإضافَةِ في: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾:

إضافَةُ الكَلِمَةِ إلى الكُفْرِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، يُرادُ به الجنسُ، الشَّامِلُ لكلِّ كلامٍ فيهِ تكذيبٌ للنَّبيِّ ﷺ، كما أُطْلِقَتْ كلمَةُ التَّوحيدِ على شَهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، فما يَصْدُرُ مِنَ المُنافِقين مِنْ كلماتٍ على اختلافِها، ما هيَ إلَّا أفرادٌ من هذا الجنس، ويجوزُ أن تَكون الإضافَةُ للعَهْدِ؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ الإضافَةَ تنقسم إلى ما تَنْقَسِمُ إليه اللَّام، فكما أنَّ اللَّامَ تَرِدُ للعهد؛ فإنَّ الإضافةَ كذلك تَرِدُ له، والمرادُ بكلمة الكفر: كلمةٌ مخصوصةٌ صدرت من بعض المنافقين، فيها إخْلالٌ بمقامِ النُّبوَّةِ، وما تَقْتَضيهِ مِن وُجوبِ الإيمانِ[1].

(كَلِمَةُ الكُفْرِ) جِنْسٌ لكلِّ تكذيبٍ للنَّبيِّ ﷺ

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْكُفْرِ﴾:

اللَّام في ﴿ٱلْكُفْرِ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، يَجوزُ أَن تَكونَ دالَّةً على العموم، وذلك لأنَّ مَن أخلَّ بمقام النُّبوَّة، فكذَّبَ ما يجب الإيمانُ به، أو تَنَقَّص من قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ قد ارْتَكَب كُلَّ كُفْرٍ[2]، ويجوز أَن تَكون اللَّامُ دالَّةً على الكمال، والمعنى: ولقد قالوا: كلمَةَ الكُفْرِ الَّذي لا أَكْبَرَ في الكُفْرِ منه؛ وهو تكذيبُ رسول الله ﷺ[3]، وهي كافيةٌ لطردهم من رحمة الله، واستحقاقهم نارَ جهنَّم،

مَنْ تَنَقَّصَ مِنْ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ فقدْ تلبَّس بالكُفْرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/269.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/552.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.

وهي الكلمةُ الَّتي أوقعتهم في حضيض الكفر"[1]، "والمرادُ بكلمة الكفر، هو الكلام الَّذي تحدَّثوا به فيما بينهم، وتناولوا فيه النَّبيَّ بالهزءِ والسُّخريَّة، وقالوا حين سُئلوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ [التّوبة: 65]، وذلك منهم هو الكفر الصُّراح.. فلو كان في قلوبهم شيءٌ من الإيمان، لما حدَّثتهم أنفسُهم بهذا السُّوء، ولما طاوعتهم ألسنتُهم على النُّطق بهذا المنكرِ من القول"[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي في: ﴿وَكَفَرُواْ﴾:

تَحَقُّقُ كُفْرِ المُنافِقينَ وَثُبوتُهُ لَهُمْ من مقاصدِ السِّياق

جاءَ التَّعبيرُ عَن كُفْرِ المنافقينَ بالفعْلِ الماضي ﴿وَكَفَرُواْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾؛ للإشارَةِ إلى تحقُّقِ كُفْرِهم وثبوته لهم، ولفظ ﴿وَكَفَرُواْ﴾ يشير إلى أنَّ " في التَّعبيرِ عن كلمات السُّوء بكلمة الكفرِ، إشارةً إلى أنَّ حصيلةَ هذا الكلام الكثير الَّذي دار على ألسنتهم، هو كلمةٌ واحدة، هي الكفر، الَّذي دُمِغوا به ظاهرًا، بعد أن كان يعيشُ في كيانهم متخفِّيًا مستبطِنًا[3].

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

يَتَرَتَّبُ الحُكْمُ الأُخْرَويُّ على الكفرِ الظَّاهر والباطن

قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، أي: أظهروا كُفْرَهُم، وإلَّا فإنَّ المُنافقين كفَّارٌ في حقيقةِ الأمْرِ، ولكنَّهم أَخْفَوا هذا الكُفر، حتَّى ظهَرَ على فَلَتاتِ أَلْسِنَتِهم، فَيَكون في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، مجازٌ بالاستعارَةِ؛ إذ قد شُبِّهَ إظهارُهُمُ الكفرَ الَّذي أبطنوه قَبْلُ بالكفر الَّذي أَنْشَؤوهُ، بجامع أنَّ كلَيْهِما يترتَّب عليهِ الحُكْمُ الأخرويُّ عندَ اللّهِ سبحانَهُ، فيكون ذلك اسْتِعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، والنُّكْتَةُ في ذلكَ المبالغَةُ في إظهار شناعَةِ صنيعِهم؛ حيثُ إنَّ الَّذي يكفُرُ بعد إسلامٍ، أقبَحُ مِمَّن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3378.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.

يُظْهِرُ كُفْرًا كامِنًا في نفسه؛ لأنَّ الأوَّل ذاقَ مِن حلاوة الإيمان ما يَنْبَغي أن يردَعَهُ عَنِ الارْتِدادِ عَنْهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإِسْلامِ دونَ الإيمانِ في: ﴿إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، فجاء التَّعْبيرُ بالإسلام دونَ الإيمانِ؛ إذْ لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وكَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ)؛ للإيماء إلى أنَّ إقْرارَهُم بالإيمان في الظَّاهر كذبٌ، وأنَّ أفعالَهُمْ صوَرٌ لا حقائقَ لها، وأنَّ ما صدر منهم هو شَيْءٌ لم يتجاوَزْ ألسنتَهُم، فكان معنى قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾: أنَّهم أظهَروا الكُفْرَ بِما ظهر من قبيح أفعالِهم وشَنيع أقوالِهم[1]، ذلك " أنَّهم أظهروا الكفر بالقول، وهمُّوا بشرٍّ ما يغري به من الفعل، وهو الفَتْكُ برسول الله ﷺ، وقد أظهره الله على ذلك، وأنبأه بأنَّهم سينكرونه إذا سألهم عنه، ويحلفون على إنكارِهم ليُصدَّقوا كدأْبِهم الَّذي سبق"[2].

ما يُظْهِرُهُ المُنافِقونَ مِنْ أَفْعالٍ وَأَقْوالٍ، صُوَرٌ زائِفَةٌ مصطنعةٌ

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

أُضيفَ الإسْلامُ إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى المنافقين في قولِ الله سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ للدِّلالة على أنَّه ليس الإسلامَ المطلوبَ مِنْهُم شرعًا، وإنَّما المعنى: بعدَ إظْهارِهمُ الإسلامَ، ولِذا لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ في هذا الموضع، مُعَرِّفًا لَفْظَ الإسلام باللَّام المفيدَةِ الحقيقةَ، والمرادُ في الآيَةِ: بعد إسلام، هو مِن شأنكم وعادَتِكُم، وهوَ تعريضٌ بأنَّه إسلامٌ صوريٌّ غيرُ الإسلامِ الحقِّ[3]، وقوله: ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، ولم يقل بعد إيمانهم؛ لأنَّ ذلك لم يتجاوز ألسنتهم[4]، ولطالما سترهم النَّبيُّ الأكرم، وتجاوز

الإِسْلامُ الَّذي يُظْهِرُهُ المُنافِقونَ، هوَ صورَةُ الإِسْلامِ لا حَقيقَتُهُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/60، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/549.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/476.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/60.

عن أقوالهم وتصرُّفاتهم، لعلَّهم يرعوون عن غيِّهم، ولكنَّهم ازدادوا كفرًا، وزاغوا، فأزاغ الله قلوبهم، وعرَّى نيَّاتِهم، وأبان عن دواخلهم، فأصبحوا كالإبل الجُرْب، لا يحظونَ بودٍّ ولا قربٍ، ويكفيهم عارًا وشؤمًا أن خلَّد الله مساءتهم، وأبان عن مثالبهم في القرآن المحفوظِ بحفظ الله إلى يوم القيامةِ، وذلك أكبرُ الخزي، وأشنعُ العار.

بَراعَةُ الإيجازِ في: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

شَناعَةُ كُفْرِ المُنافِقينَ بِسَبَبِ أَقْوالِهِمْ وَأَفْعالِهِمُ المستقبحة

في قولِ الله ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذلك أنَّه لم يَقَعْ منهم حقيقةُ الإسلام أصلًا، بَلْ صورتُهُ فحسبُ، فكان معنى ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: بعد الحُكْم بإسلامِهم، وفي إيقاعِ إسلامهم محلَّ الحُكْم به: زيادَةُ تشنيع كُفْرِهم؛ بِسَبَبِ مقالَةِ السُّوء الَّتي قالوها وأفعالِ الضَّلال الَّتي ارْتَكَبوها[1]، والآفة فيما وصفوا به من النِّفاق، هو أنَّهم أظهروا ما في قلوبِهم منَ الكفر، وما في بواطنهم من الضَّغينة بعد إظهارِهم الإسلامَ، وادِّعائهم أنَّهم دخلوا فيه، وعُدُّوا من أهليه، ولكنَّهم كانوا على العكس من ذلك، يشبهون الأجسامَ الغريبةَ النَّشازَ، وسط النَّسيج المتضامِّ المتراصِّ، وكفْرُهم بعد الإسلام يزيد من مسؤوليَّتهم الأدبيَّة، ومن تفاقم دورهم التَّخريبيِّ؛ لأنَّهم يهدِّدون حصونَ الأمَّة من الدَّاخل، ويسعون في الأرض فسادًا، والله لا يصلح عملَ المفسدين.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَهَمُّواْ﴾:

اجْتِماعُ أَنْواعِ الكُفْرِ القَوْلِيَّةِ والفِعْلِيَّةِ والاعْتِقادِيَّةِ في المُنافِقينَ

جاء التَّعْبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَهَمُّواْ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾، للدِّلالة على تحقُّق صُدورِ هذا الهمِّ منْهُم، وتردُّدِه في نفوسِهم، ورغبتِهم في تنفيذِه، وذلك أنَّ أَعْلى شَغَفِ الإنسانِ بأمرٍ ما أن تُحدِّثَهُ نفسُهُ فيه بما لا يصِلُ إليه، فيكونُ ذلك لَوْنًا من ألوانِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/207.

الهَوَسِ، وفي ذِكْرِ الهمِّ بعد ما تقدَّمَ إشعارٌ بأنَّهم جمعوا أنواعَ الكُفْرِ كُلَّها؛ قولًا وفعلًا واعتقادًا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ المَوصولِ: ﴿بِمَا﴾:

(ما) في قول الله سُبحانه: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنَى الذي، وفي الاسمِ الموصولِ إبهامٌ، ولذا يفتقِرُ إلى الصِّلة لرفعِ إبهامِهِ، ولم يُصرَّح بالذي هَمُّوا به - وهو الفَتْكُ برسولِ اللهِ ﷺ [2] - استعظامًا للتَّصريح بهِ، وإيماءً إلى أنَّه بعيدُ المنالِ عنهم، فكما لم يُذكر ذَلكَ لَفْظًا؛ فلَن يتحقَّق واقعًا، والمقصود بقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾، هو الشُّروع في تنفيذ الجريمة الَّتي خطَّطوا لها من قبلُ، وهي الفتْكُ برسول اللّه ﷺ، متى صعد على العقبة باللَّيل، وهو شروعٌ في القتل، مع سبق الإصرار والتَّرصُّد، ولكنَّ اللّهَ حمى نبيَّه، وفشلت هاته العمليَّة فشلًا ذريعًا، وأصيب منفِّذوها بخيبة الأمل، وحمى اللّه نبيَّه من كيدِ أعداء اللّه ورسوله، وكان في ذلك إعلانٌ صريح، بأنَّ اللّه عاصمُ نبيِّه من أذى البشر، فلا يقدرون على أذاته، وقد عصمَهُ اللّه من كيد أعداء الدِّين[3].

حِفْظُ النُّبوَّة مِنْ كيد المُنافِقينَ المهين بكيده تعالى المتين

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾:

الواوُ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ عاطفَةٌ، فقد عَطَفَت هذه الجملَةَ على جملةِ الحالِ في قوله سُبحانه قبلُ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، والمعنى: وكَفَروا بعد إسلامهم وهَمُّوا بقَتْلِ رَسولِ اللّهِ ﷺ، والحالُ أنَّهم ما يَنْقِمون على النَّبيِّ ﷺ، ولا على دُخولِ الإسلامِ المدينَةَ شيئًا يَدْعوهم إلى هذا الَّذي يصدُرُ منهم مِن آثار الكراهيَّة والعداوَةِ إلَّا أن أَغْناهُمُ اللّهُ ورَسولُه مِن فَضْلِه[4].

تَصَرُّفاتُ المُنافِقينَ مُنبِئَةٌ عَنْ كَراهيَّتِهِمْ لِلإسْلامِ وَأهله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.

بَلاغَةُ تَأْكيدِ المَدْحِ بِما يُشْبِهُ الذَّمَّ:

الدِّينُ الإسلاميُّ خَـيْرٌ عـمـيـمٌ، وعطاءٌ كريم

في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، تأكيدٌ للمَدْحِ بِما يُشبِهُ الذمَّ[1]، كما قال الشَّاعر:

وَلا عَيْبَ فيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ[2]

وذلك أنَّ الاستثناءَ في الآيةِ استثناءٌ مفرَّغٌ مِن أعَمِّ المفاعيلِ، أَيْ: وما كَرِهوا شَيْئًا مِنَ الأشْياءِ الَّتي أَتَتْهُم مِنَ اللهِ سُبحانَهُ إلَّا ما حقُّه أن يُشْكَرَ[3]، وهو إغناءُ اللهِ تَعالى إيَّاهُم، وهَذا مِن تَأْكيدِ المَدْحِ بِما يُشْبِهُ الذَّمَّ؛ وذلكَ لأنَّ اللهَ تَعالى نَفى أَن يَكونَ عندهم شيءٌ يصلحُ أن يَنْقِموا به، ولازمُ هذا مدحُ ما جاءَهُم به اللهُ تَعالى مِنَ الإيمان وتوابِعِه، فلمَّا جاءَ حرفُ الاستثناء (إلّا) كان السَّامعُ مُتَرَقِّبًا شيئًا يُمكنُهم أن يَنْقِموا به فيكون ذمًّا للإيمان وتوابِعِه، لكنَّ الواردَ بعدَ حرف الاستثناء مدحٌ آخَرُ، وهو قولُه: ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، فكانَ في هذا تأكيدٌ للمدْح بما يُشبه الذَّمَّ، فهو كقولهم: ما لي عندكَ مِنْ ذنبٍ إلَّا أنَّني أحسنتُ إليكَ[4]، ونُكْتَةُ ذلك: إظْهارُ أَنَّ المتكلِّمَ كأنَّه يبحث عن شيءٍ ينقضُ به حكمَهُ الخبريَّ ونحوَهُ، فيورِدُ أمرًا آخرَ هوَ مِن

(1) أوَّل من انتبه إلى هذا اللَّون من البديع المعنويِّ، عبد الله بن المعتزِّ، وعدَّه من محاسن الكلام، وسمَّاه: (تأكيد المدح بما يشبه الذَّمَّ)، ومن البلاغيين من يسمِّيه: (الاستثناء)، ناظرين إلى أن حُسْنه ناشِئ من أثر أداة الاستثناء الَّتي يبنى عليها، وتسميَةُ ابن المعتزِّ أدلُّ، ومن أمثلته البديعة قول حاتم الطَّائيِّ:

وَما تَشْتَكيني جارَتي غَيْرَ أَنَّني *** إذا غابَ عَنْها بَعْلُها لا أَزورُها
سَيَبْلُغُها خَيْري وَيَرْجِعُ أَهْلُها *** إِلَيْها وَلَمْ تُفْضَحْ عَلَيَّ سُتورُها

يُنظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، (فصل تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ).

(2) البيت للشَّاعر النَّابغة الذُّبيانيِّ، والشَّاهد النحوي في البيت نصب: (غير) على الاستثناء المنقطع، وهو موجود في همع الهوامع: 1/232، وخزانة الأدب: 3/327، وشرح أبيات المغني: 3/16، وكذلك: شرح الشَّواهد الشِّعريَّة في أمَّات الكتب النَّحويَّة: 1/168.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/60، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/105، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.

(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/329.

مؤكِّدات الحُكْم ومثبِّتاتِه للإشعار بأنَّه قدِ اسْتَقْصَى، فَلَم يجِدْ ما يُبْطِلُ ذلك الحُكْمَ[1].

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّة في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لبيان عَظَمَةِ هذا الإغناءِ وشرفه، إذ هوَ إِغْناءٌ صادِرٌ عَمَّنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمال والكمال، وهوَ الغنيُّ عنِ العالَمين، وجميعُ ما يَصْدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ[2].

إغناءُ اللهِ سُبْحانَهُ لِخَلْقِهِ؛ عطاء ممدودٌ بلا حدود

سِرُّ الإضافَةِ في: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

في قولِه: ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أُضيفَ لفظُ الرَّسولِ إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى اللهِ ﷻ في الآية الكريمة، تعظيمًا لَه ﷺ، وبيانًا لرفعةِ شأنه وقدرِه عند ربِّهِ سُبحانَه؛ إذْ هوَ ﷺ أحقُّ الخلقِ بحيازة عَظَمةِ الإضافةِ إلى اللهِ ﷻ[3]، وبالنَّظر إلى حال المخاطَبين، فهم ما عابوا من رسول الله إلَّا أن أغناهمُ الله من فضله الواسع، وعطائه المتدفِّق، بعد أن كانوا فقراءَ معوزين، وهذا من عجيب التَّعامل، وغريب التَّصرُّف، أن يستهينوا بمن كان سببًا لإخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور، وانتشالهم من الفقر والكآبة إلى الغنى والرَّحابة، فهل حقُّه عليهم إلَّا أن يجازوه بالتَّعظيم، ويكافئوهُ بالتَّكريم، فيؤمنوا بهديه المنْزَل، ويعرفوا له قدرَهُ ومقامه، وفضلَهُ ومكانه؟ فاجتمع بذلك، الدَّاعي الدِّينيُّ من جهةٍ، وداعي المروءة الإنسانيَّة من جهةٍ أخرى[4].

بَيانُ عَظَمَةِ النَّبيِّ وقدره، وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ عِنْدَ رَبِّهِ

دِلالَةُ عَطْفِ الرَّسولِ عَلى الاِسْمِ الأَعظم في قَوْلِه: ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾:

عُطِفَ الرَّسولُ عَلى الاِسْمِ الأَعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ في فعل الإغناءِ في

النَّبيُّ ﷺ سَبَبٌ في إِغْناءِ المسلمين وعزوتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/344.

قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ لكونِه السَّبَبَ المباشرَ الظَّاهرَ لهذا الإغناء، واللهُ ﷻ هو المقدِّرُ ذلكَ ومسبِّبُهُ، وَوَجْهُ كَوْنِ النَّبيِّ ﷺ سَبَبًا في ذلك أنَّ اللهَ ﷻ أغناهُم بما جَلَبَهُ حلولُ النَّبيِّ ﷺ بينهم، مِن أَسْباب الرِّزْقِ بِكَثْرَةِ عمَلِ المُهاجرينَ، ووَفْرَة المغانم في الغزوات، وبالأَمْنِ الَّذي جاء به الإسلامُ؛ إِذْ صيَّر المؤمنينَ إخوةً، فزالَتْ بينهمُ الأحقادُ والثَّاراتُ[1].

دِلالَةُ ﴿مِن﴾ في: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

صاحِبُ الفَضْلِ يُعْطي الجَزْلَ ويوفي البذل

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ دالٌّ على مَعْنى الابتداءِ، أي: إنَّ هذا الإغْناءَ مُبتدَأٌ مِنْ فضل الله ﷻ، وفي جَعْلِ هذا الإغْناء مِنَ الفَضْلِ كنايَةٌ عَن وفرةِ ما أُغْنيَ بهِ؛ وذلك لأنَّ صاحِبَ الفضْلِ يُعْطي الجَزْلَ[2].

نُكْتَةُ تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في التَّصَرُّفِ بِالأَلْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

لمّا كانَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ واردًا على سَبيلِ الذَّمِّ لِلمُنافقينَ؛ أُخِّر الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ لكونِ هذا التَّأخيرِ أَدْخَلَ في ذمِّهِمْ وَأَقْعَدَ[3].

سِرُّ إِفْرادِ الضَّميرِ في: ﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾:

الفَضْلُ للهِ ﷻ وَحْدَهُ في كلِّ نعمةٍ ومنَّةٍ

أُفرد الضَّمير في ﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، وكان مُقْتَضى الظَّاهرِ: (إلَّا أن أَغْناهُمُ اللهُ ورَسولهُ مِن فَضْلِهما)، للإشْعارِ بأنَّ الفَضْلَ فضلُ اللهِ سُبْحانَهُ وحْدَهُ، وما كانَ لِلنَّبيِّ ﷺ من الفضْلِ؛ فهو مِن فضْلِ اللهِ ﷻ[4]، ومعنى ذلك: وَما عابوا عليه إلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسولُهُ من فضْلِهِ، أي: أثراهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5344.

بالغنائم بعد شدَّةِ حاجتهم[1]، و"هو تسفيهٌ لهم، واستنكار لهذا المنكر الَّذي هم فيه.. وأنَّهم لم يتَّخذوا هذا الموقف المنحرف اللَّئيم من الله ورسوله، إلَّا لِما أفاءَ الله ورسوله به عليهم، من فضله.. وهكذا أصحاب الطِّباع السَّيِّئة، والنُّفوس المريضة، تنقلب حقائقُ الأشياء عندهم، فإذا النُّور ظلامٌ، والحقُّ باطلٌ، والنِّعمةُ نقمةٌ"[2].

دِلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن﴾:

الجَمْعُ بَيْنَ الوَعْدِ والوَعيدِ، والتَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ، من بيان القرآن

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، دالَّةٌ على التَّفريع، فَجملةُ ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، تَفْريعٌ على قولِه سبحانَهُ قَبْلُ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، على عادَةِ القُرآن الكَريمِ في إيرادِ الوعيدِ بعد الوعْد، والعكس؛ وذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ، لمّا أمرَ بجهادهم والغِلْظَةِ عليهم، وهدَّدهُم بالنَّار وتوعَّدهم بها؛ فرَّع على ذلك الإخْبار بأنَّ بابَ التَّوبةِ مَفْتوحٌ لَهُم، وأنَّ بإمكانهم استدراكَ حالهم؛ إذِ القَصْدُ مِنَ الأمْرِ بجِهادِهم والغلظَةِ عليهم هو قَطْعُ دابرِ مضرَّتهم، أو أن يصلُحَ حالُهُم[3].

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ(إنْ) في: ﴿فَإِن﴾:

شِدَّةُ الانْحِرافِ عَنِ الحَقِّ، لا تَمنَعُ من الرُّجوعِ إلَيْهِ

عُلِّق الشَّرطُ بـ (إنْ) في قول الله سُبْحانَهُ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لكون (إنْ) مفيدَةً عدمَ القطْعِ بوقوعِ مَدْخولِها، وهي جاريَةٌ على أصلِها في هذه الدِّلالَةِ؛ لأنَّ توبَتَهُمْ ليس مَقْطوعًا بها؛ إذ قد يَسْتَمرُّونَ في باطلهم ونِفاقِهم، وكذا الشَّأْنُ في تَولِّيهم عَنِ التَّوبة واستمرارِهم في كُفْرِهم؛ فإنَّه مَشْكوكٌ بِهِ؛ إذ قد تَحْصُلُ منهم التَّوبةُ والرُّجوعُ عن ذلك إلى طاعةِ اللهِ سُبْحانَهُ واتِّباع رَسولِه ﷺ، والإقلاع عن نفاقِهم، ثُمَّ إنَّ استعمالَ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/309.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/847.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

حَرْفِ الشَّرط (إنْ) هوَ الملائمُ لبابَي الوَعْدِ والوعيدِ؛ لإبقاءِ ما يترتَّب على كلٍّ مِنَ التَّوبة والتَّولِّي مُمْكِنَ الحصولِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ التَّوْبَةِ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ على التولي ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمْ﴾:

قُدِّم ذِكْرُ التَّوبة على ذِكْرِ التَّولِّي في قول اللّه ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للإشْعار بأنَّ أمرَ اللّه تَعالى نبيَّه ﷺ بجهادهم والصَّرامة معهم، وأنَّ ما توعَّدَهُمُ اللّهُ تَعالى بِهِ مِن عذاب النَّار، ليس مَقْصودًا به ذواتُهُم، بَل بسبب ما هم عليه مِنَ الضَّلال والانحراف، وأنَّ الشَّرعَ يتشوَّفُ إلى توبتهم ورجوعهم إلى الحقِّ مع ما يَتَرَتَّب عَلى ذَلِكَ مِنَ الخَيْرِ العَظيم لَهُم أَكْثَرَ من ترقُّبِهِ استمرارَهُم على باطِلِهم.

الشَّرْعُ يَتَشَوَّفُ إلى تَوْبَةِ المُخالِفينَ وَرُجوعِهِمْ إلى الحَقِّ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ في: ﴿يَكُ﴾:

جيءَ بفعْلِ الكَون في جَواب الشَّرط، فقال اللّهُ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: **(فَإِنْ يَتوبوا فهو خيرٌ لَهُم)**؛ وذلكَ لِقَصْدِ توكيدِ وُقوع الخير عند إيجادهمُ التَّوبةَ، والإيذانِ بِأَنَّ الخيْرَ لا يكونُ إلَّا عِنْدَ التَّوبةِ، وذَلك لأنَّ فِعْلَ الكَوْنِ مُشْعِرٌ بذلكَ[1]، و" هو تنبيهٌ لهؤلاء الضَّالِّين، وإشارة مضيئةٌ تطلع في ليلهم المطبق عليهم، رجاء أن يتوبوا إلى اللّه، ويستقيموا على طريقِ الحقِّ، فإن فعلوا؛ رشدوا، وأَمِنوا، وإن أَبوا؛ ضلُّوا، وهلكوا"[2].

لا خَيْرَ للإنسان إلَّا في التَّوْبَةِ وَطاعَةِ الدَّيان

بلاغةُ الاقْتِطاعِ في: ﴿يَكُ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، ضربٌ مِن ضُروب إيجاز الحَذْفِ، وهوَ المسمَّى: الاقتطاعَ[3]، وذلك في حَذْفِ النُّون من

شَدُّ ذِهْنِ السَّامِعِ إلى مَعْرِفَةِ حالِهِ في التَّوْبَةِ مهمٌّ في البيان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/848.

(3) والاقتطاع: حقيقتُهُ: حذف بعض حروف الكلمةِ، وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 7]، فقيل: إنّ الباء هنا أوّل كلمة: (بعض)، ثمّ حذف الباقي. ينظر: إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 3/83.

وقيل: "ومن أقسام الحذف: الاقتطاع: وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، وقد جعل منه بعضهم فواتح السُّور، لأنَّ كلَّ حرف يدلُّ على اسم من أسماء الله تعالى". يُنظر: الكفويّ، الكلّيات، ص: 385.

﴿يَكُ﴾؛ إذِ الأصلُ: يكُنْ، فحُذِفَتِ النُّونُ تخفيفًا، وحسَّنَ هذا الحَذْفَ أنَّ المقامَ فيه ما يشُدُّ السَّامِعَ إلى معرفة حاله فيه، فكان في حَذْفِ النُّونِ تنبيهٌ عَلى ذَلك[1]، وتعجيلٌ للمسرَّةِ الحاصلَةِ بسبَبِ التَّوبةِ، وللإيضاح فيما روي في الرِّوايات الصِّحاح، "قيل: لمَّا تلاها رسول الله ﷺ، قال الجُلاسُ: يا رسولَ اللهِ لقدْ عرض اللهُ عليَّ التَّوبةَ، والله لقد قلت وصدق عامرٌ، فتاب الجلاسُ وحسُنت توبتُه"[2].

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ وَوَجْهِ تَذْكيرِهِ في: ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

اسمُ كانَ مِن قول اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ: هوَ، راجعٌ إلى ﴿يَتُوبُواْ﴾ باعْتِبار المَصْدَرِ المستَكِنِّ في الفِعْلِ لا إلى ذات الفعلِ؛ إذْ لا يَكونُ مَرْجِعُ الضَّميرِ فعلًا، فالمعنى: تَكنِ التَّوبةُ خيرًا لهُمْ، وقُدِّر الضَّميرُ (هوَ) مذكَّرًا؛ لأنَّه الملائِمُ لتذكير الفعل ﴿يَكُ﴾، وفي ذلكَ تَخْريجاتٌ: أوَّلُها: أنَّ مرجعَ الضَّميرِ مذكَّرٌ، وهو التَّوْبُ، والتَّقدير: فإن يَتوبوا؛ يكُ التَّوبُ خيرًا لَهُم، والتَّوبُ مصدرٌ كالتَّوبة. وثانيها: أنَّ مرجِعَ الضَّمير هوَ التَّوبة، ولا يَضُرُّ تذكيرُ الفعلِ مع ما هو مؤنَّثٌ لفظًا؛ لأنَّ مثلَ هذا مغتفَرٌ في المصادِرِ. وثالثُها: أن يكونَ تذكيرُ الفعل باعتبار الخَبَرِ لا باعتبارِ الاسم، والخبَرُ وهو ﴿خَيْرًا﴾ مُذَكَّرٌ[3].

فائدةُ عَوْدِ الضَّميرِ عَلى مُذَكَّرٍ لَفْظًا وَمَعْنًى أَوْ لَفْظًا فَقط

دِلالَةُ الخَبَرِ في: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جملة الشَّرْطِ، أنَّهُ يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإنْ كانَ جوابُها خبرًا؛ فهي خبريَّةٌ، وإنْ كانَ جوابُها إنشاءً؛ فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ، والقَصْدُ من

إحْسانُ اللهِ بفَتْحِ بابِ التَّوْبَةِ للأنام، رغمَ جرائمِهِم العِظامِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/329.

الخبر استعطافُ قلوبِهم بَعْدَ ما صدَرَ عَنْهُم من الجناياتِ العَظيمَةِ، وهَذا من عَظيمِ إحْسانِ اللهِ تعالى إليهم ورِفْقِه ولُطْفِه بِهِم؛ حيثُ فَتَحَ لَهُم بابَ التَّوبةِ بعد جرائمهم العِظامِ[1]، فقد "دعاهم تعالى إلى التَّوبة بقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾، أي: من الكفر والنِّفاق، ﴿يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾"[2].

نُكْتَةُ تَضْعيفِ الفِعْلِ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾:

في الـنُّـفـوسِ داعيَةٌ شَديدَةٌ - بِأَصْلِ الفِطْرَةِ - إلى التَّوْبَةِ

ضُعِّفَ الفِعْلُ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأنَّ في النُّفوس مِنْ أصلِ فطرَتِها الأولى داعيةً شَديدةً إلى التَّوبةِ، وفي القُرآنِ الكريم زاجرًا عظيمًا عَنِ الانحراف، فكانَ في تَضْعيفِ الفِعْلِ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ العدول عن التَّوبةِ، لا يكونُ إلَّا بمُخالَفَةِ داعية النَّفْسِ، وزَواجر القُرآن الكريم، ولا يكونُ هَذا إلَّا بأَنْ يُكَلِّفوا أنفسَهُم الإعراضَ عن التَّوبة[3].

دِلالَةُ الإيجازِ بِالحَذْفِ في: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

شَناعَةُ الإعْراضِ عَـنِ الـتَّـوْبَـةِ والإيمانِ

في قول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، إيجازٌ بالحَذْفِ، فقد حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾، والتَّقدير: فإن يتولَّوا عن التَّوبةِ والإيمانِ[4]، وفي حذْفِ ذلكَ إشعارٌ بِشناعَةِ ما يصْنَعونَهُ مِنَ الإعراض والتَّولِّي، وأنَّه أمرٌ لا يَحسُنُ ذِكْرُه في اللَّفظ، فكيف حالُهُ إذا صار واقعًا؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، حَذْفٌ من جهة أخرى، وذلك لأنَّ اللهَ تَعالى ذكرَ احتمالَ تولِّيهم عَنِ الإيمانِ، ولازِمُ ذلكَ إصرارُهم على الكُفْرِ والنِّفاق، فمعنى قوله سبحانَهُ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾، أي: إن يُعْرِضوا عنِ التَّوبة والإيمان، ويُصرُّوا على النِّفاقِ والكُفْرِ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/105، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/466.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/458.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/280.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/386.

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ:

بيانُ عَظَمَةِ العَذابِ الَّذي يُعَذَّبُ بِهِ المُخالِفونَ لِرَسُلِ الله

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّةِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وهو أعرف المعارف؛ لأنَّه علمٌ على واجب الوجود، بكلِّ معاني الكمال فيه، وقد جيء به لبيانِ عَظَمَةِ هذا العذابِ وشدَّتِهِ، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدُّنْيا بالقتل والهمِّ والغمِّ، والآخِرَةِ بالنَّارِ وغيرها من ألوان العذابِ الصَّاعقة لمن يصطلي به[1]؛ إِذْ هوَ عذابٌ صادرٌ مِنْ عِنْدِ مَنْ جَمَعَ صفاتِ الكمالِ والجلالِ، وهوَ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعلمًا بحَوْلِهِ وقوَّتِهِ[2].

دِلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

بيانُ شِدَّةِ العَذابِ الأُخْرَويِّ المهول الذي يَنالُ المُنافِقينَ

نُكِّرت كلمةُ ﴿عَذَابًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لإفادَةِ التَّعظيم، فهوَ عذابٌ عظيمٌ شديدٌ، ويجوزُ أَن يَكون التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: يُعذِّبهُم اللّهُ سبحانَهُ عذابًا لَيْسَ مِن جِنْسِ العذاب الَّذي أَلِفوه، ولا تعارُضَ بينَ الدِّلالَتَيْنِ، بَل إِحْداهُما تقوِّي الأُخرى، ووَصْفُ العذابِ بالأليم في قَوْلِه ﷻ: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، بمنزلةِ التَّأكيدِ المعنويِّ؛ لأنَّ شدَّة العذابِ وإيلامَهُ وشدَّتَه، مستفادَةٌ مِن تنكيرِ لفظِ العذاب.

دِلالَةُ الطِّباقِ في: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾:

العذابُ الشَّديدُ عَلى المُنافِقينَ متواصلٌ في الدَّارين

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، وفيه إشعارٌ باسْتِمْرار العَذابِ الشَّديد عليهم وعدم انقطاعه عنهم، بَل فيهِ إيماءٌ إِلَى أَنَّهم يُعذَّبونَ أيضًا في قبورهم، إِمَّا لكون العذاب في القُبور مِن أحوالِ الآخرةِ، أَوْ لأنَّ أحوالَ القبرِ بَرْزَخٌ بينَ الدُّنيا

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/458.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.

والآخرَةِ، والقاعدَةُ تقتضي أنَّ البَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفين، فذِكْرُ الدُّنيا والآخرةِ يقتضي أنَّ ما بينَهُما داخِلٌ فيهما.

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾:

يُغْتَفَرُ في التَّوابِعِ ما لا يُغْتَفَرُ في المَتْبوعاتِ

الواوُ في قول اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ عاطفَةٌ؛ عطفَت ما بعدها عَلى جُملة: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فتكون جوابَ شَرْطٍ ثانيًا، ولا يُشْكِلُ عَلى هَذا كَوْنُ الجملة اسميَّةً، ولم تقترِنْ بالفاء الرَّابطَةِ؛ لأنَّه يُغْتَفَرُ في التَّابع ما لا يُغتفَرُ في المَتْبوع، فإنَّ حرفَ العطفِ يَكفي في رَبْطِ الجُمْلَةِ تبعًا للجُمْلَةِ المعطوف عليها[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

سُفولُ هِمَمِ المُنافِقينَ وانْحِطاطُ عَزائِمِهِمْ دليلٌ على هوانهم

في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، نجد لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وفيه الإيماءُ إلى سُفول هِمَمِ المنافقينَ وانحطاطِ عزائمهم[2]، والمُرادُ بالأرضِ: الدُّنيا، أي: ما لَهُم في هَذه الدُّنيا من وليٍّ ولا نصيرٍ، ووجهُ انعدام الوليِّ والنَّصير عَنْهُم: أَنَّ أخَصَّ ما يتميَّز به المنافق، هو فُقْدانُهُ الإخلاص، فلا يُخلِصُ لأحدٍ قريبًا كانَ أو بعيدًا، ولذا لا يكونُ أحدٌ وليًّا له ونصيرًا؛ لأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلَّا بالثِّقَةِ، ولا يوثَقُ بمنافقٍ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

لا منقذَ لِلمُنافِقينَ مِنَ العَذابِ لا بِالشَّفاعَةِ ولا بالغلاب

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ اللَّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الآية الكريمة، لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاع المُندرِجة في لفظها، وفي هَذا دِلالَةٌ عَلى حُلول العَذاب الشَّديد عَلى المُعْرِضينَ عن التَّوبةِ المتولِّين عَنِ الإيمانِ، وأَن لا ناصرَ لهم ينقذهم من العذاب بالشَّفاعةِ أو المُدافعةِ، فقولهُ ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3381.

أي: ليسَ لَهُم في الأرض مع سَعَتِها وتباعُد أَقْطارِها، وكَثْرةِ أهلِها، مَن يُنْقِذُهم مِن العَذاب[1].

دِلالَةُ ﴿مِن﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بِها تأكيدُ عُموم النَّفْي، ونقلُهُ مِنَ الظُّهورِ إلى النَّصِّيَّةِ، وذلك لأنَّه لو ورد النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما لَهُم في الأَرْضِ وَليٌّ ولا نصيرٌ)؛ لأفاد هذا العُمومَ الظَّاهِرَ، مع احتمالِ إرادَةِ الخصوص، لكن لَمَّا دخلَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) نقَلَ هذا العمومَ من كونه ظاهرًا في العموم، إلى كونه نصًّا فيه، فلا يحتَمِلُ إرادَةَ الخصوص، فكان في قولِه سُبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، التَّصريحُ بنفي الشَّافع للمنافقينَ، والمدافع عنهم نَفْيًا قاطِعًا.

لا تغني الشَّفاعةُ في المصير، ولا ينفع وليٌّ ولا نصير

نُكْتَةُ عَدَمِ ذِكْرِ السَّماءِ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

صُرِّحَ بِذِكْرِ الأرض، ولم تُذكَر السَّماء في قولِ الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ لأنَّ المُنافقينَ أَقَلُّ شأنًا مِن أن يَطْمَعوا من السَّماء بوليٍّ أَوْ ناصرٍ، وأغْلَظُ فِكْرًا مِن أن يرتَقيَ بهم فِكْرُهُم إلى ما في السماء مِنْ عجائبَ وما بها مِن جُنودٍ[2]، ولأنَّ طلبهم النُّصرة، إنَّما يكون من الأرض لا من السَّماء؛ لأنَّ اعتقادهم في نصرة السَّماء كان معدومًا، وكانوا يرون الاتِّصال المباشر بالله مستحيلًا، وأنَّهم يعبدون الأصنام لتقرِّبهم إلى الله زلفى، وهم القائلون: ﴿*هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: 36 - 37]، ولذلك تلاءم التَّعبيرُ عن الأرض دون السَّماء، مع المراد في السِّياق.

انْحِطاطُ شَأْنِ المُنافِقينَ نتاجُ سوء تقدير العواقب

سرُّ انقطاعِ الولاية بين غير المؤمنين:

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يُشيرُ إلى أنَّ اللهَ تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85، والآلوسي، روح المعاني: 5/329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/551.

حصر ولاية الأخوَّة والمودَّة وولاية النَّصر في المؤمنين والمؤمنات دونَ المنافقين والمنافقاتِ، فلَنْ يجدوا بعد الآن أحدًا من المسلمين يتولَّاهم، أو ينصرُهم بما يظهرون من النِّفاق، ولا من عصبيَّةِ الجاهليَّةِ، فقد أبطلَها الإسلامُ، ولا من الجوار والحلف فقد ضاع أدراجَ الرِّياح، ولا من أهل الكتاب، فقد ضاعَ سلطانُهم، وتلاشوا في تلافيف الزَّمان، وليس لهم ذلك في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، وهو من بليغِ التَّعبيرِ، وجميلِ الإشارة إلى التَّغيُّرات الكبرى في المصائرِ والعلاقات، والجزمِ بما هو منطوٍ في تلافيفِ الغيبِ، ممَّا لا يحيط به إلَّا علَّامُ الغيوب، ولذلك انتهت الآية بهذا النَّفي الجازمِ الفصيح، لتيئيسِ الكفرةِ والمنافقين، من أيِّ ولاية أو نُصرةٍ، قد يطمعون في اللُّجوء إليها؛ إذا حلَّ بهم العقابُ في الدُّنيا، أو قدموا للعذاب في الآخرة[1].

من اعتصمَ بغير الله؛ ضلَّ، ومن احتمى بغيره؛ ذلَّ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَقَمَ وأَنْكَرَ:

بين (نَقَم) و(أنكرَ) عمومٌ وخصوص مطلق، فالفعل (نَقَمَ) أخصُّ من (أَنْكَرَ)؛ وذلك أنَّ قولَ القائلِ: أَنكرتُ مِنْهُ كذا، يَدلُّ على أنَّه لم يُجَوِّزْ صنيعَهُ، ويُفيدُ أيضًا أنَّ المُنْكِرَ بيَّنَ أنَّ ذلك ليس بِصَلاحٍ، بخلافِ قَوْل القائل: نَقَمَ مِنْهُ، فإنَّه يدلُّ على أنَّه أَنْكَرَ عليه إنكار مَنْ يُريدُ العقابَ، ويدلُّ لِذلكَ قولُ اللهِ سُبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 8]؛ فإنَّهُم أنكروا منهم توحيدَهُمُ اللهَ تعالَى، وعذَّبوهُم عَلى ذَلك في الأُخْدودِ، ويدلُّ لِذلك أيضًا قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، فإنَّهم أَنْكَروا ما جاءَهُمْ به الرَّسولُ ﷺ باطنًا، وهمُّوا بقتله أو إخراجه[2].

الفِعْلُ (نَقَمَ) أخصُّ من الفعل (أَنْكَرَ)، وفي النِّقمة إرادةُ العقوبة دون الإنكار

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/481، (بتصرّف).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»